

مع أبي تمام في آفانه :

قصيدة النار

— ٣ —

للأستاذ محمود عزت عرفة

قصيدة النار

.. وقصيدة النار التي مقننا لها هذا الحديث هي ما أنشده أبو تمام في حادث مقتل الأفشين وصلبه ؛ وقد كان مبرراً فيها ولا شك عن الشهور الذي ساد طامة الخلافة وقتذاك . ولعل القارىء فهم بما قدمناه عن محاكمة الأفشين أننا أميل إلى الانتصار له -- ولكن الواقع أن تحقيق تلك القضية والبت فيها برأى حاسم يحتاج إلى أن يفرد له كتاب ممدود الصفحات لا مقال محدود السطور . والذي بمنيتنا أن نذكره في هذا المقام هو أن أبا تمام كان سدى في قصيدته هذه للشهور المام ، وخاصة

الشهور العربي الذي ضاق ذرعاً بنفوذ الموالي من المعجم ، وأرمضه ما تمكن لهم من النفوذ في مناصب السياسة والجيش . ندرك هذه الحقيقة من أشخاص الذين اختبروا المحاكاة الأفشين ، ومن الطريقة التي أعدوا بها الشهود وربوا مواقفهم ... وندركه من بعض ألهم نفسها في تلونها بروح الشجاعة وتحامل المصيبة ، مع شيء غير قليل من التكافؤ والإسفاف ... وندركه أكثر من ذلك ، في هذه القصة التي يحكيها إسحق بن إبراهيم المصيصي - أحد أعضاء هيئة المحاكاة - عن حديث جرى بينه وبين المنعم بعد مقتل الأفشين قال له فيه () : نظرت إلى أخى المأمون وقد اسطنع أربعة فأفلحوا ، واسطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم . قال إسحق : ومن الذين اسطنعهم أخوك المأمون ؟ قال : طاهر ابن الحسين فقد رأيت وسمعت ، وابنه عبد الله بن طاهر فم والرجل الذي لم ير مثله ، وأنت فأنت والله الرجل الذي لا يمتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم وأبن مثل محمد ؟ وأنا فاسطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وأشناس

(١) ابن الأثير : ج ٦ ص ١٩٢ ، والطبري ج ١١ ص ٨

في طريق المدنية والحضارة

ثم بعد أن دب الرهن والضعف في حضارة اليونان الفكرية جاءت إلى مصر فبمثتها ، وجددت فلسفتها وثقوبتها ، وتأثرت بها ، ونشرت أضواءها الوهاجة على المالمين . فقد استقبلت مصر كثيراً من المفكرين اليونانيين واحتضنتهم ، ونشأت فيها « الأملاطونية الحديثة » وتزعمت ، وحلت الإسكندرية محل « أثينا » في زعامة المالم الفكرية ، وكانت مكتبتها الضخمة المشهورة متخمة بالمؤلفات الإغريقية وغيرها . . .

هكذا كانت صلة مصر باليونان في الزمن القديم حية زاهرة جنى المالم منها أطيب الثمرات . . . وهكذا حافظت مصر على تراث اليونان الفكرية وورثت سلمها الثقافية بها . . .

وهكذا تمود هذه الصلة الآن بينهما بعد أن لوعهما الحنين ، واستفاض بهما الشوق . . . وقد تجلت هذه العودة المباركة في تلك الدعوة الكريمة التي وجهتها اليونان إلى معالي وزيرنا المالم

الأديب الدكتور طه حسين باشا لمنحه الدكتوراه الفخرية من جامعة أثينا العتيقة . . . وكم أسعدنا ذلك الحديث التي طلعت عايننا به « الأهرام » إذ يقول معاليه بعد عودته « وقد أنشأت مصر في جامعة أثينا كرمسى فاروق الأول للغة العربية وآدابها ، وأنشأت اليونان في جامعة فاروق بالإسكندرية كرسياً للغة اليونانية الحديثة وآدابها ، وستفتشى مههداً للدراسات اليونانية القديمة في الإسكندرية . . . وقد كانت الحكومة اليونانية رفيقة إلى أقصى حدود الرقة حين قررت أن ترد إلى الإسلام « مسجد أثينا » الذي كان ممطلا منذ استقلال اليونان سنة ١٨٣١ »

وأخيراً فإننا نرجو أن تتوطد هذه الصلة الثقافية من جديد ، وتتمسح وتمسح ، فلعلمها تكون بثنا فكراً جديداً للامتتين العريقتين ، فتستعيدا مكانتهما القديمة السامية بين أمم المالم الحديث

إبراهيم الرزقي

بأفيا ، لتحدث عن قصيدة أبي تمام التي نكروا أنه إنما أنشأها
معبراً فيها عن شعوره وشعور عامة المسلمين في وقته ؛ فهي من
هذه الوجهة كلمة صادقة تفيض بالأحاسيس القوية ، وآية من
آيات الطائي لما على الأدب حق التسجيل

الحق أبلج والسيوف عوار
فخازر من أسد المرين حذار

ملك غدا جار الخلافة منكوا
والله قد أوصى بحفظ الجبار
يارب فتننة أمة قد زها
جبارها ، في طاعة الجبار

يمثل هذا الإنذار القوي العنيف يبدأ أبو تمام قصيدته .
وكأنما هو يحاول أن يصك به آذان هؤلاء الموالى جيما بمن
ركبوا رهوسهم فتطاولوا إلى الانتفاص من كرامة العرب ، بل
حاولوا أن يتالوا بالأذى ولي نعمتهم المنتصم وهو الكفيل أن
يهلك كل متجبر فيهم ، امثالاً لأمر الجبار سبحانه في أمثالهم
من أهل البنى

ثم ما أسرع ما ينفذ أبو تمام إلى أول المعاني الخطيرة التي
أعدها لهذا المقام ، فالأفشين قد أوتى نعمة لم يبرها ولم يحسن القيام
عليها لأنه غير كفء لها . فهو حري إذاً أن يسلب هذه النعمة
ولا كرامة ، وأن يلق بعدها الخسران والبوار جزاء وفاقا :

جالت بحيدر جولة القدار فأحله الطغيان دار بوار
كم نعمة لله كانت عنده فكأنها في غربة وإسار
كسبت سبائب لومه فتضاهلت كتضائل الحسنة في الأطمار

وتكرير التصريح في البيت الرابع من القصيدة « جالت
بحيدر جولة القدار » يتم على تدفق القريحة بالشمر ، وانطلاق
السجية فيه إلى مداها . فالماضي تترافد على نفس الشاعر ،
والقوافي تقتتل في سبيل احتلال مواضعها من آيات القصيد ..
وما بقي على السامع إلا أن يفتنر الروعة والجمال ، والإبداع
والإعتنان

• • •

وبعد أن يسجل أبو تمام مخادعة الأفشين لأمر المؤمنين ،

فقتل أبيه (٢) ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا معنى فيه .
فقلت : أجيبي على أمان من غضبك ؟ قال : نعم . قلت له : يا أمير
المؤمنين ، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعاها ؛
واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب إذ لا أصول لها . فقال :
يا إسحق ، انفاضة ما مررت في طول هذه المدة أيسر على من
هذا الجواب . هـ

لقد كان يتجاذب النفوذ في بلاط المعتصم حزبان كبيران :
العرب ومن يتمصب لهم ، والأعاجم ومن ينتمون إليهم . وكان
رأس الحزب العربي القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، وهو أحد من
حاكوا الأفشين . وقد عاش في كنف المأمون والمعتصم والواثق
والمستوركل على التوالي طاق منهم الإكرام والتبجيل جيما . وكان
ركن العرب عندهم وملازم الحسين ، يشفع في مسيئهم فيشفع ،
ويطلب الثواب لمحسنهم فيثاب

وهو الذي استخلص أبا داب العجلي من براثن الأفشين
حين اعتل عليه ورام قتله ، وكشف الغمة عن خالد بن يزيد
الشيباني حين علقت به حياثل الدسائس وأمر المعتصم بنفيه إلى
الحجاز (٢) وقد انضوى أبو تمام تحت راية هذا الحزب العربي
بحكم طبيئته ونشأته وتأثير من أدبه وثقافته .. وسببك للتحقق
من ذلك أن تسمع قوله لا بن أبي دؤاد في بعض مدائحهم :

أخذت بأعضاء الرب وقد خوت
عيون كليلات وذلت جماجم
فأضجوا لو اسطاعوا لقرط محبة
لقد علقت خوفاً عليك التمام
ولو علم الشيخان : أد ويعرب
لسرت إذاً تلك المظام الرمام
تلاق بك الحيان في كل محفل

جايل ، وعاشت في ذراك التمام ا
والتمام تيجان الرب كما قالوا ، والشاعر هنا يكنى بها عنهم
.. ونسج الآن البحث في موقف الأفشين ، مبنيًا عليه أو

(٢) كذا في الطبري : ولله أنه « بالنون على وزن خيل أي حاسد
(انظر القاموس)

(٣) حبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٩٢

وكيده الذي ارتد إليه فأوبقه ، وما كان يبيته لهذا الدين من شر ألبسه الله خزيه وعاره - يعود فيسجل العذر بين الممتصم في اصطاع هذا الخائن ، وفي غفلته سين عما يبطن من المفاق ، ويمتد من الكفر والحلاب . فمثل هذا أمر قد تعرض له الرسول عليه الصلوات من قبل ، وهو الممان من ربه ومن رأيه ومن مشورة صحبه بأعظم العون . وتعرض له أيضا الكرام الخيرة من آل هاشم :

هذا النبي وكان صفوة ربه من بين ياد في الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابة وهو أشد أذى من الكفار
واختار من سمد لعين بني أبي سرح ، لوحى الله ، غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التي رفعت له سجفاً عن الأسرار
والهاشميون استقلت عيرهم من كربلاء بأوثق الأوتار
فشقام (الختار) منه ولم يكن في دينه الختار ، بالختار
حتى إذا انكشفت سرائرهم اغتدوا منه براء السمع والأبصار
وهذا توجيه بارع لوقف الممتصم ، وتمزية جميلة له في خطبه .

فالأفشين صنيته ، وبجده صنع يديه . وهذه الحياة إن دلت على شيء فأما تدل على سوء الاختيار وخطأ التقدير ، وعلى أن الممتصم لنفلكه « قد استعمل فروعا لم تنجب إذ لا أصول لها » كما قال إسحق بن إبراهيم . وأبو تمام حين يتلى الأعدار اللطيفة ، أو يقتتر البراهين القوية ، لا يجد أرحب من التاريخ سجلا للحوادث ، ولا مورداً للأسى والهرب .. فليكن الممتصم في انخداعه أسوة بالرسول وآل بيته ، خدعوا في اختيارهم ، ولم يصيبوا في بعض تقديرهم ، فا نقصهم ذلك فضلا ، ولا أعلق بهم مذمة

والشار إليه في قصة الرسول عليه الصلوات هو عبد الله بن سمد بن أبي سرح . صحابي أسلم قبل الفتح واستكثبه النبي عليه السلام ، فكان يكتب موضع التفرور الرحيم ، المميز الحكيم .. وأشباه ذلك . فاطلع الله عليه النبي عليه السلام فهرب إلى مكة مرتدا ، وفيه نزل قوله تعالى : « ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » (١) . وقد أهدر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح دمه ،

(١) سورة الأنعام : الآية ٩٣

ثم استأمن له عثمان ، فأمنه الرسول (٢)

وفي أخبار أبي الميثاء (٣) أنه دخل على عبيد الله بن سليمان فشكا إليه حاله فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن الدبر؟ فقال : كتبت إلى رجل قد قصر من همته طول العقر ، وذل الأمر ، ومماناة عن الدهر ، فأخففته في طلبتي . قال : أنت اخترته . قال : وما على أعز الله الوزير في ذلك ؟ قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً فما كان منهم رشيد ، واختار النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً ؛ واختار على بن طالب أبا موسى حاكماً له لحكم عليه ا

وأما « مختار » بنى هاشم الذي يشير إليه أبو تمام فهو المختار ابن أبي عبيد بن مسعود النقي . كانت لأبيه في الإسلام آثار جميلة . والمختار هو كذاب عقيف الذي جاء فيه الحديث . وكان يزعم أنه يوحى إليه في قتلة الحسين فقتلهم بكل موضع ، وقتل عبيد الله ابن زياد . وله أسجاع يصنعها وألفاظ يتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه وتوحى إليه (٤)

وإشارة أبو تمام إلى المختار التقي تنطوي على معنى دقيق ، فهو رجل على خبت طويته وانحراف مذهبه قد خدم آل البيت ، بما أبلى في الدفاع عنهم ، وبما أراق من دم أعدائهم . ثم تمدى به طغيانه فزابل الحق وتنكب عن نهج الدين ، فكان أن قاتله مصعب بن الزبير حتى قتله (في رمضان سنة ٦٧ هـ) . وهكذا عفى بما أحدث من شر على كل ما سلف له من خير . ومثل هذا صنع الأفشين حين أبلى في الجهاد السنين ذوات العدد ، ونصر الدين بسيفه كما لم ينصره قائد ؛ ثم عما ذلك كله بما تنكشف من غدرة واستيخان من كفره

٥٥٥

ويخلص أبو تمام من احتجاجه للممتصم ، هذا الاحتجاج الذي حشد له عقله وعلمه ليمود إلى ذكر غدرة الأفشين فيقول : ما كان لولا فحش فجرة حيدر ليكون في الإسلام عام فجار

(٢) زهر الآداب : ج ٢ ص ٥٠

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد ، صاحب النوادر والشعر والأدب ، وكان ضريراً . توفي بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ

(٤) زهر الآداب : ج ٢ ص ٥١

في الحديث عن الأفشين مادحا له في حياته أو قادحا فيه بعد موته
ويبدو لنا أنه كان صادق التأثر مطبوع الماني في كلتا الحالتين .
أما اللامية فقد اقترح عليه إنشاءها عبد الله بن طاهر والي
خراسان وهو على بابة بديسابور ، وقت أن كان الأفشين يعصف
بقوى البابكية في أرشن . ومطلع هذه القصيدة :
(غدا الملك مغمور الحرى والنازل)

روى أبو بكر الصولي قال (٩) : استنشد خالد بن يزيد (١٠)
أبا تمام قصيدته في الأفشين التي ذكر فيها المتعمم ، وأولها :
غدا الملك مغمور الحرى والنازل . منور وحف الروض عذب الناهل
فلما بلغ إلى قوله :

تسريل سر بالأمم الصبر وارتيدي عليه بمضب في الكريمة فاصل
وقد ظلت عقبان أعلامه ضحى بقعيان طير في السماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقايل
قال له خالد : كم أخذت بهذه القصيدة ؟ قال : ما لم يرو
الذلة ، ولم يسد الخلة . قال : فإني أتيتك عنها . قال : ولم ذاك ،
وأنا أبلغ الأمل بمدحك ؟ قال : لأنني آليت لا أسمع شعرا حسنا
مدح به رجل فقصر عن الحق فيه ، إلا ثبت عنه . قال : فإن كان
شعرا قبيحا ؟ قال : أنظر فإن كان أخذ شيئا استرجعته منه ا

فهذا نصيب اللامية وحظها من التقدير ، أما النونية التي
مطلعها (بد الجلال (البذ) فهو دفين) فقد مدح بها أبو تمام
الأفشين عندما قدم بيباك إلى سر من رأى ، فأمر الخليفة بامتداحه
وأفاض من نعمته عليه . يقول الطبري (١١) : توج المتعمم
الأفشين وألبسه وشاحين بالجواهر ، ووصله بيشرين ألف ألف
درهم ، منها عشرة آلاف الفسلة ، وعشرة آلاف ألف يفرقها في
أهل عسكره ، وعقد له على السند ، وأدخل عليه الشعراء بمدحونه ،
وأمر للشعراء بصلات ، وذلك يوم الخميس ثلاث عشرة ليلة
خلت من شهر ربيع الآخر (٢٣٣ هـ) . وكان مما قيل فيه قول
أبي تمام الطائي :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلي سر الزناد الواري
قال أبو العيناء : انصرفت (٥) يوما من عند ابن أبي دؤاد ،
فدخلت إلى محمد بن منصور ، فوجدت عنده عمارة بن عقيل ،
وكان خلا له ، وهو ينشد قصيدة له في الرواق ، أولها :

عفت الديار رسومها قمر لعبت بها الأرواح والقطر
فلما فرغ منها قلنا له : ما سمعنا أحسن من هذه الرائية ،
أحسن الله إليك يا أبا عقيل . فقال : والله لقد عصفت رائية
طائركم هذا بكل شعر في لحنا . قلنا له : وما هي ؟ قال : كئنته التي
هجا بها الأفشين . فقال محمد بن يحيى بن الجهم : أنا أحفظها ا
فقال : هاها . فأنشده :

الحق أبلغ والحيوف عوار فحذار من أسد المرين حذار
فقال له عمارة : أنشدنا ذكر النار ، فأنشد :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلي سر الزناد الواري
ناراً يساور جسمه من حرها لب ، كما عصفت نصف إزار (٦)
طارت لها شمل يهدم لقبها أركانها هدماً بغير غبار
ففصلن منه كل مجمع مفصل وفلمن فاقرة بكل قنار (٧)
... قال راوي الحديث : ثم ذكر المصلين (٨) فقال :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدرعا من قار
يسكروا وأسرواق متون ضواصر قيدت لهم من صرابط النجار
لا يبرحون ، ومن رآهم خالمهم أبدأ على سنن من الأسفار
فقال عمارة : لله دره لقد وجد ما أضلته الشعراء ، حتى
كأنه كان مخبوءا له . قال أبو العيناء : فاعتقدت في أبي تمام من
ذلك اليوم أنه أشعر الناس ، وما كان ذارأي من قبل ا . هـ
لقد نالت هذه القصيدة إذا غاية الإعجاب منذ إنشادها ،
وبلغت من ذلك حظا لم تنافسها فيه إلا قصائد لأبي تمام مسدودة .
منها - فيما نرى - قصيدته اللامية والنونية في الأفشين أيضا .
وهما مدح له وتنويه في إبان تأليفه . وهكذا يتفوق أبو تمام

(٥) أخبار أبي تمام للصولي ص ٩٣

(٦) في رواية الديوان : شق إزار

(٧) في الديوان : فصلن منه ، بتشديد الصاد

(٨) ثم بابك الحري والليزار بن فادن وناطس الرومي نائب حمورية
وحيدر الأفشين ، صلوا جميعا في موضع واحد

(٩) أخبار أبو تمام ص ١٦٣

(١٠) خالد بن يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني . كان واليا على أرمينية

في أيام الرواق وتوفي سنة ٢٢٠ هـ

(١١) الطبري : ج ١٠ ص ٣٣٤